

# نيابة بيت المقدس

الدكتور يوسف درويش غوانة

## تأسيس النيابة :

تكنت دولة المماليك الناشئة في مصر من بسط نفوذها على بلاد الشام ، بعد انهيار المناوئة الايوبية ، وتصديهم للنتار وتدمير قواتهم في معركة عين جالوت سنة 659 هـ ( 1260 م ) . فورت المماليك والحالة هذه املاك اسيادهم الايوبيين ، وتشكلت في بلاد الشام ست نيابات ، قامت على اتناض الممالك الايوبية التي كانت قائمة فيها . ولم تتكون هذه النيابات دفعة واحدة بل جاءت على فترات تبعا للظروف التي كانت توجب اقامتها ، وهذه النيابات هي : نيابة دمشق ، ونيابة طرابلس ، ونيابة حماه ، ونيابة الكرك ، ونيابة صفد (1) .

ولكن الناصر محمد بن قلاوون اقام نيابتين جديدتين الأولى في غزة (2) ، والثانية في بيت المقدس . وولى في نيابة بيت المقدس الأمير علم الدين سنجر بن عبد الله الجاوي ( ت 745 ) ، واضاف اليه

(1) اللدشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشاء ط مصورة عن الطبعة الاميرية ، القاهرة ، ج 4 ص 91 ، 180 . الخالدي : كتاب المنصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الانشا ، مخطوط ، مكتبة جامعة القاهرة ، لوحة 7 .

(2) فأبو المحاسن بنول : ( حتى ان مدينة غزة هو الذي مصرها وجعلها على هذه الهيئة وكانت قبل كأحاد قري البلاد الشامية . وجعل لها نائباً وسمي بملك الامراء . ولم تكن قبل ذلك الا ضيعة من ضياع الرملة ) . ( النجوم الزاهرة ، ج 9 ص 193 ، ويذكر ابو المحاسن ان نائبها سنة 699 هـ كان الأمير ركن الدين الجبالي ( النجوم الزاهرة ، ج 8 ص 190 ) .

وظيفة ( ناظر الحرمين الشريفين ) ( 3 ) . وكانت نيابة بيت المقدس تابعة لنيابة دمشق . والتولية في معظم وظائفها من نائب دمشق ( 4 ) ، وبنيت على هذه الحال حتى أصبحت نيابة مستقلة كغيرها من نيابات بلاد الشام . وقد تضاربت الآراء حول تحديد التاريخ الذي أصبحت فيه نيابة مستقلة ، ثم ما هي الاسباب التي دعت السلاطين المماليك الى جعلها كذلك ؟ .

فالنصوص التي لدينا متضاربة ، فمجير الدين الحنبلي ذكر في كتابه الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل أن الناصر محمد بن قلاوون ولى الأمير علم الدين سنجر الحاوي ( نظر الحرمين الشريفين والنيابة بالقدس الشريف وبلد الخليل عليه السلام ( 5 ) بحدود سنة 713 هـ ( 1313 م ) ( 6 ) . وذكر أيضا أن الأمير تراز المؤيدي كان يتولى هذا المنصب في سنة 777 هـ ( 1375 م ) ( 7 ) . وفي سنة 782 هـ ( 1380 م ) تولاها الأمير بدر الدين حسن بن عماد الدين العسكري ، اما الأمير ناصر الدين محمد بن بهادر فكان متوليا لنيابة بيت المقدس في سنة 789 هـ ( 1387 م ) . وذكر أيضا أن الأمير شرف الدين موسى بن بدر الدين حسن تولى النيابة في سنة 793 هـ ( 1390 م ) ثم شغل هذا المنصب في سنة 795 هـ ( 1392 م ) الأمير بلوى الظاهري ، وفي السنة التالية 796 هـ ( 1393 م ) تولاها الأمير جاننمر الركني الظاهري ، وفي رجب من نفس السنة تولى النيابة بأمر من السلطان برقوق الأمير شهاب الدين أحمد اليعموري ( 8 ) .

أما الخالدي فذكر في كتابه المتصد الرفيع المنشأ أن نيابة دمشق فيها ست نيابات هي : نيابة القدس ، ونيابة صرخد ، ونيابة بعلبك ، ونيابة حمص ، ونيابة عجلون ، ونيابة مصياف ، ولكن نيابة القدس أصبحت طبلخاناه في سنة 767 هـ ( 1365 م ) ، وفيما بعد صار متوليتها من الابواب الشريفة في القاهرة ، ويضاف اليه الرملة ونابلس ( 9 ) .

ويذكر الفلشندي في صبح الأعشى أن النيابة في بيت المقدس استحدثت في سنة 777 هـ ( 1375 م ) ونيابتها إمرة طبلخاناه ، وجرت العادة ان يضاف اليها نظر القدس والخليل ( 10 ) .

---

مجموع مسير الدين الحنبلي : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ط مكتبة المحتسب ، عمان ، 1973 ، ج 2 ص 272 .

( 4 ) الفلشندي ، صبح الأعشى ، ج 4 ص 199 .

( 5 ) مجير الدين الحنبلي ، الانس الجليل ، ج 2 ص 272 .

( 6 ) ابن حبيب ، درة الاسلاك في دولة الانراك ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، ج 1 لوحة 98 .

( 7 ) مجير الدين الحنبلي ، المصدر السابق ، ج 2 ص 272 . وانظر : ابو المحاسن النجوم الزاهرة ، ج 15 ص 388 .

( 8 ) مجير الدين الحنبلي ، المصدر نفسه ، ص 272 .

( 9 ) الخالدي ، المتصد الرفيع المنشأ ، لوحة 147 ( مخطوط ) .

( 10 ) الفلشندي : صبح الأعشى ، ج 4 ص 199 .

أمير طبلخاناه : هو الأمير الذي يكون بخدمته أربعون مملوكا ، وتدق بابه بعد صلاة المغرب كل يوم ثلاثة احوال طبلخاناه ونفيران وتوقد المشاعل . والطبلخاناه تعني الفرقة الموسيقية السلطانية وهي مرتبة حربية من مراتب ارباب السيوف في الدولة المملوكية . ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص 113 .

ولكن المبريزي يذكر في أحداث سنة 796 هـ ( 1393 م ) ، ان السلطان برقوق أنعم على ( قردم الحسيني بنبابة القدس ) ( 11 ) بينما كان في غزة في طريقه لمحاربة التتار بقيادة تيمورلنك الذي اخذ يضغط على الحدود الشرقية للدولة المملوكية ( 12 ) .

ومن المعروف ان المماليك ورثوا عن أسياهم الايوبيين مهمة الجهاد ضد الوجود الصليبي في بلاد الشام ، وخاض سلاطينهم معارك طاحنة ضدهم ، حتى تمكن السلطان الأشرف خليل من فتح عكا آخر المعاقل الصليبية في فلسطين ( 13 ) وبذلك تم تطهير بلاد الشام من الفرنج نهائيا سنة 690 هـ ( 1291 م ) . ولكن الصليبيين لم يأسوا ، بل أخذوا يقومون بأعمال عدوانية ضد المماليك منطلقين من قبرص حيناً ، ومن الدويلات الأوروبية أحيانا أخرى ، ثم زادت اتصالاتهم بالتتار ، وصاروا يعملون على اقامة حلف معهم كي تبني حدود دولة المماليك الشرقية في خطر مستمر ( 14 ) ، ولتمكين الصليبيين من استعادة الأراضي التي في بلاد الشام وعلى رأسها بيت المقدس ، وفعلوا أقيم تحالف بين التتار والغرب الأوروبي ومملكة أرمينية الصغرى والقوى الصليبية في بلاد الشام لهذه الغاية ( 15 ) .

اذن فكرة السيطرة على بيت المقدس ظلت أملاً براود الفرنج طيلة العصر المملوكي فبعد سقوط عكا قاموا بحصار اقتصادي ضد المماليك ، كما شنوا الغارات المتكررة على سواحل مصر والشام لتحقيق هذه الغاية ( 16 ) وأعنف هذه الغزوات تلك التي شنّها بطرس لوزينان سنة 767 هـ ( 1365 م ) على مدينة الاسكندرية ، فاجتاحت قواته المدينة ثلاثة أيام ، وقتلت ودمرت وأسرت الكثير من أهالي المدينة ، وبعد ان تم لهم ما ارادوا غادروا الاسكندرية الى بلادهم ( 17 ) . وفي سنة 769 هـ ( 1367 م ) قام الفرنج بحملة ضد طرابلس الشام ، فدخلوا المدينة ونهبوا بعض الاسواق وحملوا معهم بعض الاسرى وقتلوا

---

( 11 ) المبريزي : السلوك ، ج 3 ق 2 ص 813 .

( 12 ) المبريزي : نفس المصدر ، ص 813 .

( 13 ) المبريزي : السلوك ، ج 1 ق 3 ص 764 وما بعدها . **Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages** , New York, 1970 P. 30

يوسف غوانغة : تاريخ شرقي الأردن في عصر دولة المماليك الاولى ، القسم السياسي ، ص 134 .

( 14 ) المبريزي : السلوك ، ج 3 ق 2 ص 813 .

سعيد عبد الفتاح عاشور ، الظاهر بيبرس ، سلسلة اعلام العرب ص 75 ، 89 ، 95 .

( 15 ) سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ، ص 96 .

( 16 ) المبريزي : السلوك ، ج 3 ق 2 ص 813 .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج 12 ص 52 .

( 17 ) النويري الاسكندراني : كتاب الامام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والأمر المفضية في وقعة الاسكندرية ،

تحقيق عزيز سوريال عطية ، الهند ، 1970 م ج 2 ص 113

المبريزي : السلوك ، ج 3 ق 1 ص 109 .

آخرين من سكان المدينة (18) . وهكذا دخلت الدولة المملوكية حربا بحرية مع الفرنج ناهيك عن الحصار الاقتصادي الذي ايده البابا وباركه .

ونتيجة لغزوة بطرس لوزنجان على الاسكندرية ، استلزم الأمر ان يتولى الاسكندرية امير كبير ، كي يتمكن من الوقوف في وجه الاخطار الصليبية فولى السلطان الأشرف شعبان الأمير بكتمر الشريفي نيابة الاسكندرية ( وهو ولي نائب ولي نيابة الاسكندرية من النواب ) (19) .

لقد أظهر المماليك تفهما كبيرا للخطرين الصليبي والتتاري ، واستعدوا لذلك فالظاهر بيبرس اقام خطا دفاعيا قويا على الحدود الشرقية لدولته وشحنه بالرجال والعتاد ، واحكمه بشبكة اتصال قوية تربطه بالناهرة ، كما اقام خطا دفاعيا آخر يمتد من الشويك ، والكرك جنوبا الى اعالي العاصي شمالا ، كي ينف في وجه الخطرين التتاري والصليبي معا (20) . فالصليبيون هددوا السواحل المصرية والشامية ، واجتاحوا مدنه وعطلوا حركة التجارة والاتصالات البحرية المملوكية . أما التتار فكانوا يعبرون الفرات في طريقهم الى بلاد الشام والديار المصرية ، ولكن سرعان ما تصدى لهم القوات المملوكية فيعودون النهري الى بلادهم ، وان كانوا قد وصلوا الى غزة واجتاحوا دمشق بقيادة محمود غازان سنة 699 هـ ( 1299 م ) (21) . ثم اجتاحتها مرة أخرى سنة 803 هـ ( 1400 م ) بقيادة تيمورلنك ، وسفكوا دماء الكثير من سكانها وسكان المدن الفلسطينية الأخرى . ولكنهم لم يدخلوا بيت المقدس فلمس من عينهم وتدميرهم .

ان الهداف الحثيثي من وراء الهجمات الصليبية وتحالفهم وتعاونهم مع التتار اعاد سيطرتهم على فلسطين وبيت المقدس بالذات ، فغزوة المبارصة على الاسكندرية سنة 767 هـ ( 1365 م ) كان غرضها الوصول الى بيت المقدس عن طريق الناهرة (22) . وبعد فشلهم حول الفرنج نشاطهم نحو بلاد الشام ، فهاجموا طرابلس ونهبوها ، ثم هددوا بيت المقدس نفسه ، حيث اجتاحت قواتهم يافا فرضة

(18) المرزبي : السلوك ، ج 3 ق 1 ص 149 .

ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج 11 ص 52 .

(19) النجوم الزاهرة ، ج 11 ص 30 . ويقول المرزبي ( وهو اول من بانثرها نيابة سلطنة ) . ( السلوك ج 3 ق 1 ص 115 ) . وانظر : ابن اياس ، بدائع الزهور ، ط دار الشعب ، الناهرة 1960 ، ص 184 ، 185 .

(20) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، ص 94 ، احمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك في مصر والشام ، ص 208 . يوسف غوانمة : تاريخ شرقي الأردن ( النسم السياسي ) ، ص 57 .

(21) يقول المرزبي ( امتدت التتار الى القدس والكرك تنهب وتأمر ) . السلوك ، ج 1 ق 3 ص 890 . ويقول ايضا : ( نهبت التتار الاغوار حتى بلغوا الى القدس وعبروا غزة وقتلوا بجامعها خمسة عشر رجلا وعادوا الى دمشق وقد اسروا خلعا كثيرا ) . السلوك ، ج 1 ق 3 ص 896 . وانظر : ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج 8 ص 122 .

Atiya, op. Cit. P. 357 (22)

ويذكر النويري الاسكندراني ان الذين اشتركوا مع المبارصة في غزوة الاسكندرية : البنادقة 14 غرابا ، الجنوية 2 غرابين ، الروادسة 10 غرابان ، الفرنسيين 5 غرابان .

( الانام بالاعلام ، ج 2 ص 230 ) .

المدس على البحر المتوسط في سنة 813 هـ ( 1410 م ) ( 23 ) ، ولم ينف الأمر عند هذا الحد ، بل تسللت قوات فرنجية الى المدس نفسه عن طريق الحج ( 24 ) ، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق حلمهم القديم .

ولما ادرك السلطان الاشرف شعبان عظم الخطر الذي يهدد بيت المدس من الصليبيين ، عمد الى رفع مرتبة نائبها فجعله برتبة طبلخاناه ( 25 ) ، ولكن النيابة بنيت مرتبطة بنائب دمشق . وقد زود السلطان نائب بيت المدس بالدوات والعتاد كي يتمكن من صد الاخطار التي تهدد البلد بالمدس . الا ان المرزبي ذكر في سنة 796 هـ ( 1393 م ) ان السلطان الظاهر برقوق انعم على الأمير قردم الحسيني بنبابة المدس ، وذلك في غرة اثناء توجهه لمحاربة التتار برعامة تيمورلنك .

وهذا النص الذي أورده المرزبي ، هو اول اشارة صريحة عن تولية نائب لنبابة بيت المدس من قبل السلطان في الناهرة ، وسببه الخطر التتاري الذي اخذ يهدد دولة المماليك وبلاد الشام ويضغط عليها بشدة . ان خوف الظاهر برقوق على المدينة المدسة ، دفعه الى استحداث نبابة مستقلة فيها ، كي تستطيع الوقوف في وجه الاخطار الداهمة تماما كما فعل السلطان الاشرف شعبان بعد غزوة بطرس لوزجنان للاسكندرية فاستحدث نبابة الاسكندرية وجعل فيها اميرا كبيرا وزوده بالرجال والعتاد ، للوقوف في وجه الخطر الفرنجي الذي ما فتى يهدد السواحل الشامية والمصرية معا .

ومما يؤكد ما ذهبنا اليه ، ان مجير الدين الحنبلي ذكر ان تولية النيابة والنظر في بيت المدس كان يتم من قبل نواب الشام ، ولم يزل الأمر كذلك الى نحو 800 هـ ( 1397 م ) فأصبح تولية النائب من قبل السلطان في الناهرة ( 26 ) . والملاحظ هنا ان التاريخين لدى المرزبي والحنبلي متشاربان ، مما يدعم وجهة النظر التي ذهبنا اليها . اصف الى ذلك ان المرزبي وابا المحاسن يشيران بعد هذا التاريخ الى تولية نواب في نبابة بيت المدس كغيرها من نيابات بلاد الشام ( 27 ) . ففي سنة 844 هـ ( 1440 م ) ذكر

( 23 ) المرزبي : السلوك ، ج 4 ق 1 ص 143 .

( 24 ) مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل ، ج 2 ص 317 .

( 25 ) وقد ايد ذلك المؤرخان الخالدي والمكشندي معا ، اما التاريخ الذي ذكره المكشندي من ان نبابة بيت المدس استحدثت في سنة 777 هـ ( 1375 م ) ، فاننا لا نغفل الى الأخذ به ، فمن دراستنا للاحوال السياسية والعسكرية في هذه السنة ، لم نجد فيها من الأمور الهامة التي دفعت السلطان لاستحداث نبابة في بيت المدس ، فلا يوجد ما يبرر هذا العمل .

المكشندي : صبح الأعشى ، ج 4 ص 199 .

الخالدي : المنصد الرفيع ، لوحة 147 مخطوط .

( 26 ) مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج 2 ص 282 .

( 27 ) وعلى سبيل المثال انظر : المرزبي : السلوك ، ج 3 ق 3 ص 1038 . ج 4 ق 1 ص : 81 ، 88 ، 109 ، 138 ، 188 ، 266 ، 446 ، 451 ، 483 ، ج 4 ق 2 ص 975 ، ج 4 ق 3 ص 1161 . وانظر ايضا : ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج 12 ص 231 ج 13 ص 75 ، 90 ، 105 ، 126 . ج 14 ص 10 ، 262 ، ج 15 ص 76 ، 291 ، 294 ، 318 ، 322 ، 331 ، 371 ، 372 ، 384 ، 389 ، 448 ، 532 ، ج 16 ص 127 ، 130 . وانظر كذلك : ابن الصبري : نزعة النفوس والابدان ، ج 2 ص 287 ، ج 3 ص 44 ، 348 .

المفريزي النيابات في بلاد الشام على النحو التالي : نيابة الشام ، نيابة حلب ، نيابة طرابلس ، ونيابة حماه ، ونيابة صفد ، ونيابة غزة ، ونيابة القدس ، ونيابة الكرك (28) . أما أبو المحاسن فزاد عليها نيابة ملطية (29) . ومن هنا نجد أنه أصبح في فلسطين ثلاث نيابات هي : نيابة صفد ، ونيابة بيت المقدس ، ونيابة غزة ، وهذا يناقض ما ذهب اليه لويس وغيره من الباحثين ، من أن فلسطين في العصر المملوكي كانت تشتمل على نيابتين فقط ، هما نيابة غزة ونيابة صفد (30) . وهكذا فالسلطان المماليك ، أولوا المدينة المقدسة أهمية خاصة فجعلوها نيابة مستقلة في سنة 796 هـ ( 1393 م ) على رأسها أمير كبير ، كي ينف بدوة وحزم أمام الاخطار والاطماع الصليبية والتتارية معا .

## الوظائف في نيابة بيت المقدس

### نائب السلطنة :

أصبح بيت المقدس نيابة مستقلة سنة 796 هـ ( 1393 م ) ، على رأسها أمير كبير ولايته بمرسوم شريف من القاهرة . وكان نائب السلطنة يقيم في ( دار النيابة ) (31) ، الواقعة بجانب الرواق العلوي من المسجد الأقصى بجوار منارة الغواغو (32) . وكان النائب يجلس في صدر الايوان الخاص المسمى ( ايوان الحكم ) ، ليحكم بين الناس وللنظر في شؤون النيابة ولكن نائب بيت المقدس خضر بك بنى منعدا ملاصقا لايوان الحكم من جهة الشمال ، وصار يجلس فيه على عادة ( مجالس الحكم ) في الديار المصرية (33) . ودار النيابة هذه اقيمت مكان المدرسة الجاولية التي بناها الأمير علم الدين سنجر الجاولي سنة 715 هـ ، وخصصها للمذهب الشافعي ، وتحولت الى دار للنيابة في سنة 800 هـ ( 1400 م ) (34) .

(28) المفريزي : السلوك ، ج 4 ق 3 ص 1200 .

(29) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج 15 ص 226 .

ملطية أو ملاطية : بلدة كبيرة حصينة ، تقع على سفوح جبال اللكام ، وهي إحدى الحصون المنيع منذ العصر العباسي ، تكثر حولها التلال المكسوة بالاشجار والسهول الخصبة .

( لي سترانج : فلسطين في العهد الاسلامي ، ص 480 ) .

(30) Cohens et Lexis, Population and Revenue in the towns of Palestine , P. 9.

(31) مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج 2 ص 274 .

(32) المنهاجي السيوطي : إتحاف الاخصا بفضائل المسجد الأقصى ، مخطوط جامعة برنستون ، لوحة 745 . مجير

الدين الحنبلي ، المصدر نفسه ج 2 ص 308 .

(33) مجير الدين الحنبلي ، نفس المصدر ، ص 337 .

(34) مجير الدين الحنبلي ، المصدر نفسه ، ص 272 .

عارف العارف : تاريخ القدس ، ص 90 .

وكان لثائب بيت المندس اقطاع خاص ، يشتمل على عدة قرى ، وذكرت المصادر ان من بين هذا الاقطاع مدينة اريحا في غور الأردن (35) . وفي احيان كان يجمع اليه نظر الحرمين الشريفين المندس والخليل فيطلبون عليه ( ناظر الحرمين ونائب السلطنة بالمندس الشريف وبلد سيدنا الخليل ) وهذا امتياز لم يحظ به اي نائب من نواب بلاد الشام . وبذا نال النائب قوة وتشريفا . وفي احيان كان النائب يجمع بين : كاشف الرملة ، وكاشف نابلس واستادار الاغوار ، ومتولي الصلت وعجلون ، كما حدث سنة 840 هـ ( 1436 م ) في دولة الاشرف برسباي ، الذي جمع للامير طوغان العثماني بين هذه الوظائف (36) . وهو اقصى اتساع بلغت نيابة بيت المندس .

اما تولية النائب فكانت تتم بمرسوم سلطاني . وعندما يتولى هذا المنصب أو تجدد نيابته مرة أخرى ، يدخل المدينة مرتديا خلعة النيابة ، يحف به النضاة والمهاليك واعيان المدينة فتزين الاسواق وتدق البشائر ، ثم يدخل المسجد الأقصى حيث ينرا المرسوم السلطاني على المجتمعين (37) . وكانت الطليخانة تدق على باب بيته كل ليلة (38) ، تماما كما يحدث للامراء الكبار في الديار المصرية . ولنيابة السلطنة في بيت المندس ثلاث ولايات :

1 - ولاية الخليل .

2 - ولاية نابلس .

3 - ولاية الرملة (39) ، وفي احيان كان المرسوم السلطاني ينص على توليته ( نيابة المندس ونظر الخليل وكشف الرملة ونابلس (40) .

وفي اواخر القرن التاسع الهجري ، تولى نيابة بيت المندس نواب اشتبهوا بالظلم والدسوة ، فأساؤوا الى النيابة وسكانها ، ومنهم من تولاها بمال بذله الى السلطان في الناهرة ، ففي سنة 892 هـ ( 1487 م )

---

(35) مجير الدين الحنبلي ، المصدر نفسه ، ص 75 ، 323 .

اريحا : عاصمة الغور ويعتبرها اليعقوبي من البلاء . وتبعد مسافة يوم عن المندس ( لي سترانج : ص 315 ) .

(36) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ، الناهرة ، 1970 - 1974 ، ج 3 ص 383 . مجير

الحنبلي ، المصدر السابق ، ج 2 ص 275 . الكاشف : من وظائف ارباب السيوف ، ويحكم على جميع البلاد التي يتولى كشفها فيجتمع الى الامراء ويمد السباط ويحضره النضاة وتقرأ النصص بين يديه .

الملشندي : صبح الأعشى ، ج 4 ص 25 .

الاستادار : من وظائف ارباب السيوف ، وتعني الأمير الذي يتولى قبض مال السلطان ، أو الأمير وصرفه ، وكان

يتولى امر البيوت السلطانية كلها ، وصاحبها امير كبير .

( الملشندي : صبح الأعشى ، ج 5 ص 457 ) .

(37) مجير الحنبلي ، المصدر نفسه ، ج 2 ص 337 .

(38) مجير الدين الحنبلي ، المصدر نفسه ، ص 280 .

(39) الخالدي : المصنف الرفيع المنشأ ، لوحة 147 ( مخطوط ) .

مجير الدين الحنبلي ، المصدر نفسه ، ج 2 ص : 275 ، 367 ، 373 ، 374 .

(40) المدرزي : السلوك ، ج 4 ق 2 ص 975 . وانظر :

ابن الصيرفي : نزهة النفوس والابدان ، ج 3 ص 348 .

تولى النيابة ونظر الحرمين بالمدس الامير دقماق ( ببذل عشرة الاف دينار للخزائن الشريفة ، غير ما تكلفه لاركان الدولة ) ( 41 ) .

ومن الوظائف الأخرى الموجودة في النيابة نذكر : نائب السلعة ، ووالي المدينة والحاجب ، والدوادر ، اما الوظائف الدينية فمنها : ناظر الحرمين الشريفين ، ومشايخ الصلاحية ، والنضاة والمحتسب وناظر البيمارستان . اما الوظائف الديوانية فنذكر منها :

### ناظر الجيش :

وموضوعها التحدث في الاقطاعات الخاصة بنبابة بيت المقدس ، والكتابة بالكشف عنها ، واخذ خط النائب عليها بعد اخذ رايه ، وضبط الاقطاعات المنطعة للامراء والاجناد في النيابة . ثم الكتابة الى السلطان عن الاقطاعات المتوفرة عن اصحابها بالموت ونحوها ، حيث تحمل الى ديوان الجيش بالديار المصرية ويمتضى ذلك يخرج المنشور السلطاني بشأن هذه الاقطاعات ( 42 ) . وهذه الوظيفة ديوان خاص ثبت فيه المناشير الخاصة بالاقطاعات المنطعة في النيابة ، والصادرة من السلطان في القاهرة . ويساعد الناظر في مهمته كتاب وشهود ( 43 ) .

### جيش نيابة بيت المقدس

تردد في المصادر عن وجود قوات في نيابة بيت المقدس . مما يؤكد ان جيشا خاصا وجد بها . ملها في ذلك مثل بنية نيابات بلاد الشام . ولدينا احصائية بعدد جيوش نيابات بلاد الشام اوردتها ابن شاهين الظاهري ، ولكنه لم يورد شيئا عن عدد جيش بيت المقدس ( 44 ) . وبذا لا نستطيع اعطاء رقم صحيح لعدد هذا الجيش . وان كنا نرى بالمقارنة بجيوش نيابات كل من حماء وصفد والكرك ( 45 ) . ان جيش نيابة بيت المقدس كان بحدود الألف فارس ما عدا الرجالة ورجال الدبائل العربية في جبل القدس والخليل وجبل نابلس .

وقد اشتركت قوات بيت المقدس في قمع الفتن في النيابة نفسها وفي خارجها وفي التجاريد والحروب التي خاضها المماليك ضد العثمانيين . ففي سنة 821 هـ ( 1418 م ) ثارت عربان بني عذبة في شرقي الاردن على نائب الكرك . فطلب السلطان الى نائب القدس ونائب غزة نجدة نائب الكرك ( 46 ) الا انه في نفس الوقت اسر لنائب غزة الناء الدبض على نائب الكرك ، فألقى النائبان الدبض عليه حسب رغبة

( 41 ) مجير الدين الحنبلي : الانس الجليل ، ج 2 ص 342 .

( 42 ) الدمشقي : صبح الأعشى ، ج 4 ص 190 .

( 43 ) الدمشقي ، المصدر نفسه ، ج 4 ص 31 .

( 44 ) ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، باريس 1894 م ص 104 ، 105 .

( 45 ) ابن شاهين الظاهري ، المصدر نفسه ، ص 104 . وللباحث : تاريخ شرقي الاردن ( السمة الحضاري ) ص

( 46 ) الميرزي : السلوك ، ج 4 في 1 ص 446 .



السلطان . وارسل مع نائب الدندس الى دمشق حيث سجن بملعنها (47) . وفي سنة 827 هـ ( 1424 م ) اشتركت قوات الدندس بقيادة نائبها الامير شاهين الذباح في قتال نائب دمشق تنبك البجاسي النائر في دمشق . بالاشتراك مع قوات مصر وصفد . وتمكنوا من الناء النبض عليه . واعتاله في قلعة دمشق (48) . ثم اشتركت قوات بيت الدندس مع قوات مصر وصفد في سنة 842 هـ ( 1438 م ) لمحاربة الأمير اينال الحكيم نائب دمشق الخارج عن الطاعة . فحاربوه وهزموه والنوا النبض عليه (49) .

وفي اواخر دولة المماليك الثانية قام المماليك بارسال التجاريد لمحاربة شاه سوار واعوانه الذين صاروا يضغطون بشدة على حدود دولتهم الشرقية والشمالية . وقد اشتركت الدوات من بلاد الشام في هذه التجاريد . وخصوصا الرجال المجندون من جبل الدندس والخليل وجبل نابلس (50) . ففي سنة 875 هـ ( 1470 م ) اشتركت قوات بيت الدندس بقيادة نائبها الامير يوسف الجمالي في قتال شاه سوار صحبة القائد الأمير يشبك الدوادار . فهزما شاه سوار والنوا النبض عليه . واستولت الدوات المملوكية على البلاد التي كان قد استولى عليها . وكانت قوات بيت الدندس قد عادت من هذه التجربة في 23 شعبان 876 هـ (51) .

وفي سنة 889 هـ ( 1484 م ) بدأت الخلافات بين السلطان الاشرف قايتباي والسلطان بايزيد بن عنان ملك الروم (52) . فجهز الاشرف قايتباي الدوات لقتال ابن عنان وحليفه علي دولات اخي سوار . وارسل يطلب الدوات من بلاد الشام . فقام الأمير جانم نائب الدندس باعداد الدوات من النبال العربية واهالي جبل نابلس والدندس . وسار بهم الى الرملة حيث التقى مع الجيش المملوكي القادم من مصر بقيادة الأمير تراز التمشي (53) .

---

(47) المدرزي : المصدر نفسه . ج 4 ق 1 ص 451 .

(48) ابو المعاسين . النجوم الزاهرة . ج 14 ص 265 . ابن الصيرفي : نزهة النفوس ص 39 . 44 . وانظر : الحنبلي : الانس الجليل . ج 2 ص 274 .

(49) المدرزي : السلوك . ج 4 ق 3 ص 1112 . 1113 . 1137 . 1138 .

(50) وقد قتل شاه سوار الكثير من الجيش المملوكي . فابن اياس يذكر القتلى في احدي هذه التجاريد ( واما من قتل من الجند والمماليك السلطانية ومشايخ عربان جبل نابلس والعشير والتركيات والغلمان فما امكن حصره ) . ( ابن اياس . بدائع الزهور . ط الشعب ص 413 ) .

(51) الحنبلي : الانس الجليل . ج 2 ص 291 . وانظر : ابن اياس : بدائع الزهور . ط الشعب . ص 427 . 431 . 436 . ويصف ابن اياس نهاية شاه سوار ويذكر انه اقتيد الى القاهرة حيث اعدم على باب زويلة سنة 877 هـ . ( بدائع الزهور . 439 ) .

(52) ابن اياس : بدائع الزهور . ط الشعب . ص 518 .

(53) الحنبلي : الانس الجليل . ج 2 ص 332 . ويقول ابن اياس ان هذه الحادثة اول الفتن مع ابن عنان بسبب تعصب الأخير لعلي دولات . واستمرت الحروب بين العنانيين والمماليك حتى انتهت بسقوط الدولة المملوكية . ( بدائع الزهور . ط الشعب . ص 522 ) .

واستمرت الحروب بين الطرفين . فأرسل السلطان في السنة التالية تجريدة لنتال ابن عثمان . وصفها ابن اياس بأنها ( من أعظم التجاريد ) ( 54 ) . ولكن السلطان اضطر الى جمع الاموال والرجال من أنحاء الدولة ( وحصل للناس من الممالك ما لا خير فيه . من أخذ البغال والخيول وغير ذلك . ما حصل به الضرر الشامل وزيادة على ذلك ظلم أرباب الدولة ( 55 ) . حتى أن العلماء والفنهاء لم يسلموا من ذلك . ففي سنة 891 هـ ( 1486 م ) . قدم الامير ممالي الخاصكي الى بيت المقدس ورسم على اكابر الناس وأخذ منهم مالا . فأخذ من ناظر الحرمين الامير ناصر الدين بن الشاشيبي أربعة بغال وحصانا . ومن النائب جانم 200 دينار . ومن شيخ الصلاحية 30 ديناراً ومن الناضي فخر الدين بن نسبة 400 ديناراً . ومن الناضي شهاب الدين الجوهري 300 ديناراً . وحصل للناس في بيت المقدس منه شدة ( 56 ) . ثم قدم بعده الأمير أقبردي الدوادار لتجهيز الرجال من جبل نابلس والندس لنتال بايزيد بن عثمان ملك الروم . وصار يتنقل من مكان الى آخر لجمع الرجال ودفع النفقات لهم . فتارة ينزل بأرض قاقون وتارة بأرض اللجون ( 57 ) وتارة بالرملة . وأثناء اقامته في جبل نابلس أبقي الشيخ خليل بن اسماعيل في مشيخة جبل نابلس على عادته ( 58 ) .

ولكن الصراع مع ابن عثمان والممالك أخذ يزداد ويستشري . ففي سنة 893 هـ ( 1488 م ) امر السلطان باعداد الدوات لمحاربة ابن عثمان . فأرسل الامير أقبردي الدوادار والناضي زين الدين بن مزهر كاتب السر الى جبل نابلس والندس لتجهيز الدوات للاشتراك في التجريدة ( 59 ) . وحضر اعيان بيت المقدس للنائها في الرملة . فسلم الأمير أقبردي لنتال النائب والندس وقاضيتها مبلغ خمسة آلاف ديناراً ليصرف الى الرجال المعينين من جبل النديس والخليل ( 60 ) . وعند تمام استعدادهم غادرت الدوات بيت المقدس .

( 54 ) ابن اياس : بدائع الزهور . ط الشعب . ص 528 .

( 55 ) ابن اياس : المصدر نفسه . ص 529 .

( 56 ) الحنبلي : الانس الجليل . ج 2 ص 335 .

( 57 ) قاقون : حصن يقع في فلسطين بجوار طولكرم . وكان يتبع لاقليم قيسارية الواقعة على الشاطئ . وورد ذكره في المصادر الصليبية كأكو . شاكو .

( لي سترانج . ص 438 ) .

اللجون : بلدة تقع في حد فلسطين مع الاردن على بعد 20 ميلاً عن طبريا و 40 ميلاً عن الرملة . وهناك اللجون الواقعة في البلقاء بشرقى الاردن على طريق الحج .

( لي سترانج . ص 463 . 464 ) .

( 58 ) الحنبلي : الانس الجليل . ج 2 ص 335 . ويذكر ابن اياس ان أقبردي حضر لاتحاد الفتن التي حدثت بين عربان جبل نابلس والتي قتل فيها العديد من الامراء وتذكر منهم الأمير أقبردي بن بخشايش الا ينالي استادار الاغوار .

( بدائع الزهور . ط الشعب . ص 531 ) .

( 59 ) ابن اياس : بدائع الزهور . ط الشعب . ص 547 .

( 60 ) الحنبلي : الانس الجليل . ج 2 ص 342 .

في مستهل رجب ، وانضمت الى قوات جبل نابلس ، ومنها سارت العساكر المدسية والنابلسية لمحاربة ابن عشان وحصلت ( الشدة بسبب التجاريد وذهاب الناس الى بلاد الروم ) (61) .  
وقد عاد بعض رجال هذه التجريدة الى بلادهم دون اذن من قادتهم ، فعهد السلطان الى ارسال الامير اقبردي الدوادار الى جبل نابلس والندس وطلب من نائب الندس دقماق استرجاع مال التجريدة ممن دفع اليه من الرجال . فاسترجع دقماق الاموال بالضرب والحبس والتعذيب ( وفعل بهم فعلا لم يسمع بمثله في الجاهلية ، حتى ان بعض الناس باع ابنته كما يباع الرقيق ، وتفاحش الامر وبني الناس في شدة شديدة ومحنة لم تعهد بالارض المدسة من قبل (62) . ومع ذلك فان تجهيز المحاربين من الندس ونابلس بني قائما ، ففي سنة 895 هـ ( 1490 م ) ارسل السلطان الامير ازبك لجمع الرجال من جبل الندس وجبل الخليل ونابلس وغيرها من المناطق الفلسطينية للاشتراك في حرب بايزيد بن عشان ، وحصل للناس شدة بسبب ذلك (63) . ثم انضمت هذه القوات الى قوات الجيش المملوكي القادم من القاهرة ، وقد وصف ابن اياس هذه التجريدة بأنها من نوادر التجاريد لكثرة من اشترك فيها من الامراء والاجناد (64) . وتؤكد المصادر ان الطاعون الذي اجتاح البلاد سبع مرات أفنى عددا كبيرا من الجيش المملوكي (65) . لذا عمد المماليك الى تجنيد الرجال من نيابة بيت المدس بسبب كثافتها السكانية ولما عرف عن رجالها من البأس والقوة .

وكان جيش نيابة بيت المدس كغيره من جيوش النيابات الأخرى في بلاد الشام يشتمل على امراء واجناد ومماليك وكان هذا الجيش يصغر ويكبر حسب الظروف ، فهو في تقديرنا الف فارس نظامي ما عدا الرجالة ( المشاة ) ومماليك الامراء ، ويبلغ احيانا الألوف ويضم عندئذ رجال الثبائل والعشائر في جبل الندس والخليل وجبل نابلس ، الذي كان السلطان يصرف لهم النفقات والجوامك كما رأينا .

### التجارة الداخلية والخارجية في النيابة :

اشتهر بيت المدس بأسواقه الكثيرة وابنته العالية ، وصناعاته العديدة (66) . وكانت اسواقه زاخرة بصنوف السلع المختلفة ، منها ثلاث قصبات ( قيل انه لم يكن لغالب البلاد نظيرها (67) . ومن المعروف ان اسواق المدن الاسلامية في العصور الوسطى ، كانت متخصصة فكل سوق اختص بسلعة

(61) الحنبلي : المصدر نفسه ، ج 2 ص 343 .

(62) المصدر نفسه ، ج 2 ص 345 .

(63) المصدر نفسه ، ج 2 ص 348 .

(64) ابن اياس ، المصدر السابق ، ص 559 .

Kedar B. Merchants in Crisis, Yale, U.S.A. 1976 p. 14.

(65)

(66) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ترجمة يحيى الخشاب ، بيروت ، 1970 ، ص 56 ، ابن شاهين ، زبدة كشف

الممالك ، ص 23 ، لي سترايج ، فلسطين في العهد الاسلامي ، ص 97 .

(67) ابن شاهين : المصدر السابق ، ص 23 .

معينة . فوجد في بيت المندس سوق الزيت ، وسوق النطائين ، وسوق الطباخين (68) ، وسوق النماش ، وسوق الخضر . وسوق العطارين ، وسوق الحريرية ، وسوق الفخر ( نسبة لفخر الدين صاحب المدرسة الفخرية ) وبه المصابين التي يعمل بها الصابون (69) .

وكذا وجدت الاسواق المتخصصة في كل من الخليل والرملة ونابلس (70) . ويحيط بمدينة بيت المندس منطقة خصبة واسعة ، تدوم بتزويد المدينة المندسة بكم حاجاتها من الفواكه والحبوب والزيوت ، مثلها في ذلك مثل دمشق التي كانت تعتمد على معظم منتجات الاراضي الشامية كالزيت من نابلس ، والصابون من نابلس والمندس وسمرين (71) ، والتين من حلب والارز من بانياس ، والحليب من بعلبك ، والسكر من الاغوار ، والفحم من عجلون ، والرمان من الصلت ، وبذلك كانت هناك حركة تجارية داخلية بين هذه المدن والمناطق المحيطة بها (72) .

وكانت الاسواق الاسبوعية التي تنام في المدينة فرصة للدرويين ورجال النبائل للحصول على ما يحتاجون اليه من سلع ، منابل منايضتهم لمنتجاتهم من الحبوب والفواكه والاجبان والبسط والسجاد والزيت والتين المجفف واللوز والجوز وغيره من السلع المختلفة (73) .

وفي العادة تنشط التجارة الداخلية في بيت المندس في المواسم ، ففي موسم الحج من كل عام ، يحتشد في بيت المندس اعداد كبيرة من مسلمي بلاد الشام وغيرها للاحتفال بالحج وزيارة المسجد الاقصى والصخرة . وقد كانوا من الكثرة بحيث يبلغ عددهم في بعض السنين عشرين الفا (74) . فتتنشط الحركة التجارية في اسواق المدينة المندسة ، وبعم الخير ليس على المندس وحده بل على المنطقة المجاورة ، حيث يهرع سكانها للتجار مع وفود الزائرين . ولم ينقص الأمر على هذا الموسم ( او السياحة الداخلية ) ، بل يجتمع في البيت المندس اعداد اخرى كبيرة من النصارى واليهود لزيارة اماكنهم المندسة ، وللاحتفال بمواسمهم الدينية (75) . لذا تنام في هذه المناسبات الاسواق الخاصة التي تعود بالنفع على تجار المندس

---

(68) الحنبلي ، الانس الجليل ، ج 2 ، ص 304 .

(69) الحنبلي : المصدر نفسه ، ص 53 ، 54 .

(70) رحلة ابن بطوطة ، دار التراث ، بيروت ، 1968 ، ص 56 ، 57 .

(71) سمرين : بلدة مشهورة تقع في منطقة حلب وتشتهر بأشجار الزيتون وصناعة الصابون المسمى بالاجري الذي يصدر الى دمشق والناصرة . ويصنع فيها نوع من الصابون المعطر ذو الوان متعددة يستعمل لغسل الوجوه والايدي . ( رحلة ابن بطوطة ، ص 63 ، لي سترانج ص 399 ) .

(72) Lapidus, Muslim Cities in the Late Middle Ages, U.S.A. 1967, P. 17

يوسف غوانة : تاريخ شرقي الاردن ، النسم الحضاري ، ص 55 .

(73) ناصر خسرو ص 99 ، ابن بطوطة ، ص 97 ، اي سترانج ، ص 98 ، 486 .

(74) ناصر خسرو ، ص 55 .

(75) ناصر خسرو ص 55 ، المفريزي : السلوك ، ج 4 ق 2 ص 637 ، 928 .

ابن شاهين : زبدة كشف المالك ، ص 23 .

والمستبسين من اهالي المناطق المحيطة . الذين ينصدون البيت المقدس في تلك المواسم . وهؤلاء النصارى يأتون من انحاء مختلفة من العالم بنصد الحج الى كنيسة النيامة فمنهم الشاميون والاوربيون والمصريون والاحباش . حتى ان الاحباش بلغوا في سنة 886 هـ ( 1481 م ) ثلاثة آلاف زائر (76) وفي سنة 922 هـ ( 1516 م ) بلغوا ثمانمائة زائر (77) .

وكانت المعاملات التجارية تتم عن طريق المنايضة او بواسطة الدنانير الذهبية والدراهم الفضية المسكوكة في انحاء مختلفة من دولة المماليك . ومع ان المصادر المديية اشارت الى وجود دار السكة في بيت المقدس . الا اننا لم نعر على ما يشير الى استمرارها في اداء دورها في العصر المملوكي . فالتبايات في بلاد الشام كانت تتعامل كما اسلفنا بالدنانير والدراهم المملوكية المضروبة في دمشق او القاهرة (78) . وتشير المصادر الى وجود الدنانير المصورة في بيت المقدس (79) . ولاشك ان تجار هذه المدينة كانوا يحصلون عليها عن طريق الحجاج الاوربيين الذين كانوا يزورون بيت المقدس ، او عن طريق المبادلات التجارية التي كانت تتم بين بيت المقدس واوروبا عن طريق ميناء يافا على ساحل البحر المتوسط (80) .

لقد كانت العلاقات التجارية بين الدولة المملوكية والدويلات التجارية الايطالية والاوربية في اوج ازدهارها . وقد كان للتجار الأجانب في الموانئ الشامية والمصرية وكالات وقناصل لرعاية شؤونهم التجارية (81) . ولم يقتصر الأمر على الساحل بل بلغ نشاط التجار الاوربيين الى الداخل الى دمشق وعجلون وبيت المقدس (82) . فوجد في بيت المقدس وكالة خصصت للتجار الاجانب (83) . بالاضافة الى الخانات والنياسر التي كانت تؤجر التجار وبيع فيها اصناف البضائع المختلفة (84) . وذكرت المصادر عن وجود فروع لبعض الشركات التجارية الايطالية فالشركة الفلورنسية Bardi كان لها فروع عديدة في ايطاليا نفسها وفي الخارج ففي الخارج وجدت فروعها في : برشلونة ، وقبرص ، وأرغون ،

---

(76) ابن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، القاهرة ، 1964 ، ج 1 ص 39 .

(77) ابن طولون : المصدر نفسه ، ج 2 ص 5 .

(78) التلشندي : صبح الاعشى ، ج 4 ص 199 .

يوسف غوانة : تاريخ شرقي الاردن ، النسم الحضاري ، ص 78 .

(79) الحنبلي : الانس الجليل ، ج 2 ص 305 .

ابن اياس : بدائع الزهور ، ط الشعب ، ص 554 .

(80) المرزبي : السلوك ، ج 4 ق 1 ص 143 .

(81) النوري الاسكندراني : الامام بالاعلام ، ج 2 ص 137 ، 156 ، ويذكر انه وجد في الاسكندرية فندق

الكيتلانيين ، وفندق الجنويين ، وفندق الموزة ، وفندق المرسيلين ، ج 2 ص 171 .

(82) النوري : نهاية الارب ، ج 31 لوحة 91 ( مخطوط ) .

وللباحث . تاريخ شرقي الاردن ، النسم الحضاري ، ص 67 .

(83) الحنبلي : الانس الجليل ، ج 2 ص 52 .

(84) الحنبلي : الانس الجليل ، ج 2 ص 52 .

والنسططينية ، والندس ، ولندن ، ومرسيليا ، ونيس ، وباريس ! وتونس (85) . ثم ان الوجود الاوروبي في بيت المندس كان يتمثل في اعداد كبيرة من النسوس والرهبان في كنيسة النيامة وغيرها من الكنائس (86) . وهذا يؤكد وجهة نظرنا النائلة بأن العلاقات الاقتصادية والتجارية والدينية بين بيت المندس واوروبا كانت مستمرة .

وقد كانت سلع بيت المندس ومنتجاته تصدر الى الاسواق الخارجية فبعض هذه السلع كان يصل لاسواق اوروبا كالبلسم من اريحا والحرمن البحر الميت ، والزيت والصابون من نابلس والندس ، والنبيذ من الندس والخليل ، والنيلة من وادي الاردن ، والسكر من الاغوار الذي كان يصدر لاسواق الخارجية الاوروبية على شكل غسل او باورات او مسحوق (87) . كذلك صدر بيت المندس بعض منتجاته وسلعه الى الاسواق الشامية والمصرية (88) ، مثلها في ذلك مثل بنية المنتجات الشامية التي كانت تجدد طريقها الى مصر ، فمن بيت المندس المصنوعات اليدوية من فضية وخشبية ، والزيت والصابون والفواكه ، ومن دمشق السيراميك والزجاج والمنسوجات الجيدة ، ومن الكرك البسط والاجبان والفواكه واللوز والجوز (89) . كل هذه السلع كانت تصدر الى مصر اما بحرا عن طريق الموانئ الشامية كصيدا وصور وبيروت وعكا ويافا ، او عن طريق بري عبر قطيا على الحدود المصرية الشامية ، حيث كان متحصل المكوس فيها الف دينار يوميا (90) . وفي الناهرة أقيمت للتجار الشاميين النياسر الخاصة والوكالات ، كما اقيمت الخانات على الدروب لخدمة النوافل التجارية النادمة من الشام الى مصر وبالعكس (91) .

اما المكاييل التي كانت مستخدمة في بيت المندس ، فهي الغرارة ، والغرارة تساوي 12 كيلا ، والكيل يساوي 6 امداد (92) . وذكر المصادران بيت المندس وعمان انفردتا ( بالمد ) ، وكان مد بيت المندس يساوي 3/2 النفيز ، والنفيز يساوي 4 وبيات او 36 صاعا (93) . واستعملت مدينة الرملة ايضا النفيز

---

(85) Sapori, Amando, The Italian Merchant in the Middle Ages, New York 1970, p. 51.

(86) ابن اياس : بدائع الزهور ، ط الشعب ، ص 543 .

(87) Prawer, The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1972, pp. 394-395.

(88) ابن شاهين ، المصدر السابق ، ص 23 .

(89) المرزبي : السلوك ، ج 3 ص 530 . وللباحث : تاريخ شرقي الأردن ، النسم الحضاري ، ص 88 .

(90) ابن بطوطة : لرحلة ، ص 5 .

(91) ابن شاهين : المصدر السابق ، ص 23 . Lapidus, op. Cit. pp. 17-18.

(92) ابن الاخوة : معالم الدربة في احكام الحسبة ، الناهرة ، 1976 ، ص 51 ، 82 للنشندي : صبح الأعشى ،

ج 4 ص 181 ، 198 .

والغرارة مد ونصف تساوي ثلاثة ارادب مصرية . ( صبح الأعشى : ج 4 ص 181 ) .

(93) لي سترانج ، ص 65 .

والوبية والمكوك والكيلجة ، فالوبية تساوي مكوكين ، أما المكوك فيساوي 3 كيلجات ، والكيلجة تساوي صاعا ونصف (94) .

واستخدم المندسيون الرطل في أوزانهم ، أما عن مساواة هذا الرطل بالدرهم فلا نعلم ذلك (95) ، فاختلف الرطل من مدينة الى أخرى فرطل دمشق يساوي 600 درهم أما رطل غزة فهو 720 درهما ، وفي الكرك يساوي 900 درهم ، أما في عجلون فهو 1200 درهم (96) أما المنايس فاستخدم في نيابة بيت المندس ذراع النماش ، وكان ذراع النماش الشامي يزيد على ذراع النماش المصري بمقدار نصف سدس ذراع (97) ، أما دورها فكانت تناس بذراع العمل وطوله ثلاثة اشبار بشبر رجل معتدل (98) .

### النشاط السكاني في النياحة :

تدل الدراسات الديموغرافية ان سكان بيت المندس بلغوا في القرن الخامس للهجري ( الحادي عشر الميلادي ) 20,000 نسمة (99) ، ثم ارتفع هذا العدد في القرن السادس الهجري ( الثاني والثالث عشر الميلادي ) ، فبلغ 30,000 نسمة (100) . وبلغت مساحة المدينة المندسة 720 دونما ، فكافتها السكانية اذن 42 شخصا للدونم الواحد (101) . ومن الملاحظ ان الكثافة السكانية في بيت المندس كانت في المرتبة الثانية بين المدن الفلسطينية بعد عكا ، التي بلغت كثافتها السكانية 50 شخصا الدونم الواحد (102) .

- 
- (94) المندسي : احسن التقاسيم ، ص 181 . وللباحث : عمان حضارتها وتاريخها ، عمان ، 1979 ص 169 .  
ونزيد من التفاصيل عن الأوزان انظر : ابن سلام ، كتاب الاموال ، القاهرة ، 1968 ، ص 688 - 699 .  
(95) فقد جاء ذلك في صبح الأعشى بياضا ، ج 4 ص 199 .  
(96) ابن الاخوة ، معالم الفرية ، ص 139 .  
صبح الاعشى ، ج 4 ص 181 ، 198 .  
(97) الفلندشندي : المصدر نفسه ، ج 4 ص 181 .  
(98) المصدر نفسه ، ج 4 ص 443 .  
(99) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص 56 .  
لي سترانج ، ص 99 .

Benvenisti, The Crusader in the Holy Land p.26

(100)

Ibid., p. 26.

(101)

Ibid., p. 27.

(102)

وبلغ عدد السكان في المدينة المندسة اوجه في القرن السابع والثامن الهجري ( الثالث والرابع عشر الميلادي ) ، فبلغ سكان المدينة المندسة آنذاك 40,000 نسمة ، فكافتها السكانية كانت 56 شخصا للدونم الواحد ، وهي أعلى كثافة سكانية وصلتها المدينة المندسة في العصور الوسطى .

ثم أخذت الكثافة السكانية في التدني ، فبلغ سكانها في القرن التاسع الهجري ( الخامس عشر الميلادي ) 16,000 نسمة . ثم تدنى الى النصف . فبلغ في منتصف القرن التاسع الهجري ( 15 م 8,000 نسمة . ثم أصبح في اوائل القرن العاشر الهجري ( 16 م ) 3,000 نسمة . ثم اخذ في الهبوط مرة اخرى ، ولكن سرعان ما عاد للارتفاع ثانية في العصر العثماني (103) .

وقد حدث تخلخل في الكثافة السكانية في فلسطين اثناء الغزوة الصليبية على بلاد الشام ، فهجر السكان المدن الساحلية ، اما المدن الداخلية فهجرها بعض سكانها ومع ذلك فبنيت مأهولة بالعرب الوطنيين . وهذا التخلخل حدث في الرملة ويسان والخليل ، أما بيت المقدس فقدت الكثير من سكانه نتيجة للغزوة الصليبية . فالمصادر اللاتينية تذكر ان الفرنجة قتلوا في المدينة المندسة عشرين الفا ، بينما قدرت المصادر الاسلامية العدد بسبعين الفا (104) .

وازداد سكان بيت المقدس في العصر الايوبي ، ولكن الزيادة بلغت اقصاها في العصر المملوكي ، فند استقبلت المدينة المندسة اعدادا من المهاجرين ، من العراق والبلاد الشرقية الذين تركوا بلادهم امام الضغط التتاري . فلاذوا بمدن الشام : حلب وحماه ودمشق والقدس الذي استأثر بالعديد من هؤلاء

---

(103) في نهاية القرن العاشر الهجري ( 16 م ) لم تكن الكثافة السكانية في المدن الفلسطينية عالية فديموغرافيتها كانت على الشكل التالي :

صفد اكبر المدن الفلسطينية : 12,000 نسمة .

القدس : 8000 نسمة .

غزة : 6000 نسمة .

نابلس : 4300 نسمة .

الخليل : 3500 نسمة

كفر كنا : 2850 نسمة

مجدل : 2800 نسمة .

لسد : 2500 نسمة .

انظر : Hutteroth ET Abdulfattah Historical Geography of Palestine 1977 p. 45, 52.

(104) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج 8 ص 189 .

Fulcher of Chartres

A History of the Expedition to Jerusalem

New York 1973 p. 121.

New York, 1973 P. 121

Benvenisti, op. Cit. p. 146.



المهاجرين (105) . كما ان الاستقرار والهدوء الذي نعمت به المدينة المندسة ، كغيرها من مدن بلاد الشام حيث نعمت بدرجة من الثروة والازدهار والامن (106) . وللأهمية الخاصة التي اولاهها اياها السلاطين المماليك ، كل ذلك زاد في نمو المدينة وازدياد عمراتها ، فانعكس ذلك على كثافتها السكانية فبلغ تعدادها 40,000 نسمة ، وهو اعلى رقم وصلته في تاريخها الوسيط .

ولكن الكثافة السكانية اخذت في الهبوط منذ منتصف القرن الثامن الهجري ( النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي ) ، فهدأ اصاب بلاد الشام بل العالم كله ما عرف في المصادر القديمة بالفناء العظيم ( الطاعون ) (107) ، وافنى هذا الطاعون اعدادا كبيرة من بلاد الشام وبادت مدن بأكملها مثل اللد والرملة وجنين (108) . فالنمو السكاني في النصف الثاني من القرن الرابع عشر اقترب من التوقف ، ليس في بلاد الشام ومصر فحسب ، بل في العالم كله (109) . وقد شاهد ابن بطوطة ما فعله الوباء في مدن بلاد الشام ، كدمشق التي كانت تفقد يوميا الفي شخص (110) ، اما غزة فقدت معظم سكانها . وتسبب الوباء في موت اعداد كبيرة من سكان بيت المندس ، ومنذ ذلك الحين اخذت الكثافة السكانية في بيت المندس في التدهن حتى بلغت اشدها في اوائل القرن العاشر الهجري ( اوائل السادس عشر الميلادي ) .

ومما ساعد على تخلخل الكثافة السكانية في فلسطين . خاصة وبلاد الشام عامة الحروب والنحط والجفاف التي ضربت المنطقة في اوائل القرن التاسع الهجري ( الخامس عشر الميلادي ) . فالمدرزي يذكر ان تيمورلنك خرب بلاد الشام ومدها وقتل من اهلها ما لا يحصى عدده ( بحيث اقامت الندس مدة اذا اقيمت صلاة الظهر بالمسجد الاقصى لا يصلي خلف الامام سوى رجلين ) (111) . وبذكر المدرزي ايضا في سنة 825 هـ ( 1421 م ) ، ان النحط والجذب اصاب حوران والكرك والندس والرملة وغزة لعدم نزول المطر ، وتنتج عن ذلك نزوح كثير من سكان هذه البلاد عن اوطانهم (112) .

---

(105) السلوك ، ج 4 ق 2 ص 611 ، 1029 .

ابن الصيرفي : نزهة النفوس ، ج 3 ص 61 .

(106) Lapidus, op. Cit. P. 16

(107) وبسبب هذا الطاعون فهدت فرنسا 4/3 سكانها ، وايطاليا نصف سكانها والمانيية فهدت مليون وربع شخص ، والطاعون الذي اجتاحت اوروبا في القرن الرابع عشر كل عشر سنوات منع النمو السكاني .

(108) المدرزي : السلوك ، ج 2 ص 774 .

يوسف غوانة : تاريخ شرقي الاردن ، القسم السياسي ، ص 269 ، 270 .

(109) Lopez, R. The Commercial Revolution in the Middle Ages U.S.A. 1976, p. 29.

Kedar, Merchants in Crisis, Yale, U.S.A. 1976, p. i., 5.

(110) ابن بطوطة : الرحلة ، ص 96 .

(111) السلوك ، ج 4 ق 1 ص 225 .

(112) المصدر نفسه ، ج 4 ق 1 ص 609 ، وينور : ان من العوامل الهامة في عدم تزايد السكان العوامل

الطبيعية كالطمس وكثرة الامراض وانتشارها . (Lopez, op. Cit p. 29).

ومنذ عام 833 هـ ( 1429 م ) عاد الطاعون مرة أخرى للمنطقة ، فأصاب غزة والندس والرملة وصفد ودمشق ، وحمص وحماه وحلب ، وهلك فيه خلائق لا يحصى عددها (119) . ويقول الميريزي في حوادث هذه السنة . ان الوباء والتزلات فتكت بالناس اذ كانت ( تنحدر من الدماغ الى الصدر فيموت الانسان في اقل من ساعة بغير تقدم مرضي ، وكان اكثر هذا في الاطفال والشباب ) (114) . ولعل هذا الوباء الذي وصفه الميريزي هو نوع من انواع الحميات النوية التي كانت تفتك بالناس بهذا الشكل الخطير (115) . ثم عاد الوباء مرة أخرى ف ضرب المنطقة في سنة 841 هـ ( 1437 م ) فمات من جرائه خلق كثير ، في دمشق وغزة والرملة والاغوار (116) .

وهكذا نرى ان بيت المندس نتيجة للطاعون الذي اصاب المنطقة والعالم كله في منتصف القرن الثامن الهجري ( منتصف الرابع عشر الميلادي ) . فقد نصف سكانه ، اي ما يقارب 20,000 نسمة . ثم اخذت الديموغرافية تتدنى في بيت المندس وفلسطين نتيجة للغزوة التتارية المدمرة بزيادة تيمورلنك سنة 803 هـ ( 1400 م ) ( 117 ) وزاد في تدنيها النحط والجفاف الذي اصاب المدينة المندسة والمناطق المجاورة سنة 825 هـ ( 1421 م ) بحيث هجرها كثير من سكانها (118) . اُضيف الى ذلك الطاعون والوباء ( الحمى ) التي دهمت الندس والعديد من المدن الشامية سنة 833 هـ ( 1429 م ) ! و 841 هـ ( 1437 م ) ادى الى هلال خلائق لا يحصى عددها (119) . ونتيجة لذلك فقد الندس نصف سكانه . فأصبح عدد السكان في منتصف القرن التاسع الهجري ( الخامس عشر الميلادي ) 80000 نسمة . وفي اواخر القرن التاسع الهجري اصاب الطاعون بيت المندس في السنوات 873 هـ ( 1468 م ) . و 881 هـ ( 1476 م ) و 897 هـ ( 1491 م ) وافنى ثلثي سكانه اي حوالي 5000 نسمة (120) . ففي أوائل القرن العاشر الهجري ( السادس عشر الميلادي ) ، لم يبق في الندس سوى

---

(113) السلوك ، ج 4 ق 2 ص 822 ، 836 .

ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج 14 ص 337 ، 338 ، 348 .

(114) الميريزي : السلوك ، ج 4 ق 2 ص 824 .

(115) وربما كان هذا الوباء هو ما نسميه اليوم بالحمى الشوكية .

(116) السلوك ، ج 4 ق 2 ص 1029 ، 1031 ، 1034 .

(117) السلوك ، ج 4 ق 1 ص 225 .

(118) السلوك ، ج 4 ق 2 ص 609 .

(119) السلوك ، ج 4 ق 2 ص 822 ، 824 ، 836 ، 1029 ، 1031 ، 1034 .

النجوم الزاهرة ، ج 14 ص 337 ، 338 ، 348 .

(120) وقد استنتجت ذلك من خلال دراسة قمت بها لعدد الوفيات في بيت المندس في هذه السنوات .

انظر : الانس الجليل ، ج 2 ص 286 ، 318 ، 361 .

3000 نسمة (121) . ثم بدأت الديموغرافية في الصعود . حيث بلغت في منتصف القرن العاشر الهجري ( السادس عشر الميلادي ) 8000 نسمة (122) .

وكان سكان بيت المقدس اختلاطا من مسلمين ونصارى ويهود . أما النصارى فكانوا (123) يشكلون نسبة كبيرة في زمن المقدسي . و اضاف انهم كانوا اصحاب السلطة في البيت المقدس وذكر ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري ( الحادي عشر الميلادي ) عن وجود النصارى واليهود في بيت المقدس . وان أعدادا كبيرة منهم تأتي من ديار الروم لزيارة الكنيسة والكنيس (124) . وقد ازداد عدد السكان النصارى بعد الغزوة الصليبية لبلاد الشام واحتلال المدينة المقدسة . فند قتل الصليبيون الالاف من سكان القدس المسلمين . كما هجرة أعداد من سكانه . وشجع الصليبيون أيضا هجرة النصارى الوطنيين الى القدس . فتذكر المصادر ان فسا من نصارى البلقاء وعمان نزحوا الى القدس . وخصص لهم هناك حي عرف ( بمحلة المشاركة ) . لانهم قدموا من منطقة البلقاء الواقعة شرقي القدس . وبعد تحرير بيت المقدس سنة 583 هـ ( 1187 م ) عاد السكان المسلمون للقدس فزادت نسبتهم في العصر الايوبي ومن ثم في العصر المملوكي . حتى اصبحوا يشكلون نسبة 70 - 80 % من السكان (126) .

ونصارى بيت المقدس كانوا في معظمهم من أصل عربي . بجانب عدد من نصارى الفرنج من دول اوروبا المختلفة والاحباش (127) . وسكن هؤلاء الاديرة والكنائس العديدة في المدينة المقدسة وبيت لحم والتي بلغت عشرين كنيسة . اكبرها كنيسة النيامة التي كانت تتسع لثانية آلاف شخص (128) . ووجد في بيت المقدس حارة سميت بحارة النصارى بجانب باب الخليل (128) .

اما اليهود فكانوا قلة في العصر الاسلامي . ففي القرن الخامس الهجري ( الحادي عشر الميلادي ) وجد ببيت المقدس عدد من اليهود . كما وجد بها كنيس ( كنيس ) . وكان اليهود يأتون لزيارة بيت المقدس من انحاء متفرقة من العالم (130) . وسكنوا في حارة خاصة اطلق عليها ( حارة

Hutteroth, op. Cit. pp. 45.52.

(121)

Ibid, P. 52

(122)

(123) لي سترانج . ص 97 . 98 .

(124) ناصر خسرو . سفرنامه . ص 55 .

(125) الدفطي : اخبار العلماء بأخبار الحكماء . ص 248 .

يوسف غوانمة : تاريخ شرقي الاردن . التسم الحضاري . ص 115 . عمان حضارتها وتاريخها . ص 184 .

وانظر الانس الجليل . ج 2 ص 54 .

(126)

Benvenisti op. Cit. P. 215

(127) ناصر خسرو . ص 70 .

ابن طولون مفاكهة الخلان . ج 1 ص 39 . ج 2 ص 5 .

(128) ناصر خسرو ص 75 .

(129) الانس الجليل . ج 2 ص 53 .

(130) ناصر خسرو . ص 55 .

اليهود ( 131 ) . وفي فترة الاحتلال الصليبي لبيت المقدس تعرض اليهود لتعسف الفرنج فهجروا المدينة المقدسة . ومعظم انحاء فلسطين ( 132 ) ، وامتد تعسف الفرنج لمناير اليهود ، فدمروا منابرهم الثلاث ، واستخدموا حجارتها في بناء بيوتهم ( 133 ) ، وفي منتصف القرن السادس الهجري ( الثاني عشر الميلادي ) ، قدم الرحالة بنيامين اليهودي الاندلسي الى فلسطين ، وزار معظم مدنها وقدم لنا احصائية ديموغرافية لليهود . فوجد في بيت جبريل ثلاثة يهود و 12 يهوديا في بيت لحم ، وفي الرملة 3 يهود ، وفي بافا يهودي واحد ، وعسقلان 200 يهودي ، وفي طبرية 50 يهوديا . اما بيت المقدس فلم يجد فيه يهوديا واحدا . وكانت دمشق تمثل اكبر تجمع يهودي في بلاد الشام . حيث كان بها 3000 يهودي ( 134 ) . ثم بدا اليهود يتسللون الى المدينة المقدسة بعد تحريرها من الفرنج ، وزاد عددهم في العصر المملوكي . وامتحنوا التجارة والصياغة والدباغة كعادتهم ( 135 ) . ولم يكن عددهم كبيرا ولكن تمتعوا بنفوذ قوي بسبب ما لديهم من ثروات طائلة ، ففي سنة 868 هـ ( 1473 م ) حدث نزاع بين اليهود والمسلمين حول كنيس اليهود الموجود في حارتهم . فقد ثبت لدى القضاة ان الكنيس مبحث في دار الاسلام ، فاغلطوه ومنعوا اليهود من التعبد فيه ( 136 ) . ولكن اليهود في بيت المقدس بزعامه كبيرهم يعثوب ، رفعوا امرهم للسلطان في القاهرة ، فأمر السلطان بعض العلماء في القاهرة بالنظر في هذا الأمر ، وحدث خلاف في الرأي بينهم وبين قاضي الشافعية في بيت المقدس الذي منع اليهود من كنيسهم . الا ان السلطان أرسل مرسوما في سنة 869 هـ ( 1474 م ) الى ناظر الحرمين ناصر الدين بن الشاشيبي بتمكين اليهود من كنيسهم . وعدم معارضتهم . فمكنوا منه ( 137 ) . وقد اشيع في بيت المقدس ان اليهود بذلوا مبلغا كبيرا من الدنانير المصورة الى الخزانة الشريفة حتى مكنهم من كنيسهم ( 138 ) . ولما ورد ذلك لمسامع السلطان ، امر بإعادة النظر في الامر والتحقق من امر الكنيس . فعند القضاة مجلسا آخر في المدرسة التنكزية ، وكان رأي شيخ الاسلام كمال الدين ابن ابي شريف ان لا وجه لمنع اليهود من كنيسهم بغير مسوغ شرعي . وان من شهد بحدوث الكنيس في دار الاسلام عليه ان يثبت ذلك بمسند شرعي ( 139 ) . الا ان القاضي الشافعي نكن من اثبات وجهة نظره بالشهود ، واصدر امره بمنع اليهود من كنيسهم مرة اخرى . ولم ينف

( 131 ) الانس الجليل ، ج 2 ص 52 ، 56 .

( 132 )

Martin, E. The Crusades, p. 127.

( 133 )

Benjamin, Early trafels in Palestine, p. 84.

( 134 )

Ibid, p. 91.

( 135 )

Benjamin, op. Cit. pp. 85-87

الانس الجليل ، ج 2 ص 305 .

( 136 ) النص الجليل . ج 2 ص 302 .

( 137 ) المصدر نفسه . ج 2 ص 304 .

( 138 ) المصدر نفسه . ج 2 ص 305 .

( 139 ) المصدر نفسه . ص 307 .

الامر عند هذا الحد . بل توجه بعض العلماء الى الكنيس وامروا بهدمه ، فهدموا غالته فتوجه اليهود للسلطان في القاهرة للشكوى (140) . فأرسل السلطان الاشرف قايتباي مرسوماً بالبناء التبرع على الناشي الشافعي وبعض العلماء ممن ناصروه في رايه ، ووضعوا في الحديد وارسلوا الى القاهرة (141) . فأهانهم السلطان وضرهم . ثم دعا الأمير شيبك بن مهدي الدوادار الكبير لعند مجلس حضره النضاة الأربعة في الديار المصرية وبعض العلماء ، ودار البحث في امر الكنيس ، ووصف ذلك اليوم بأنه ( كان يوماً مهولاً بتصرة اليهود على المسلمين ) (142) . وقد استعمل الدوادار شيبك سلطاته واستخدم القوة لارهاب الحضور . فعندما تكلم رجلان من طلبة العلم بما فيه نصرة المسلمين ، التى التبرع عليهما وسهرهما ووضعهما في الزنجير (143) . ثم اخذ الأمير شيبك يهدد ويتوعد . عندئذ أصدر قاضي النضاة الشافعي في الديار المصرية ولي الدين الاسيوطي امراً بعدم جواز المنع الصادر من المندس لفساده ، ثم افتي بعض العلماء في الديار المصرية بجواز إعادة الكنيس . اما قضاة بيت المندس فأمر السلطان بعزلهم ومنعهم من سكنى المندس (144) .

ونتيجة لهذه الفتاوى التي حصل عليها اليهود ، تدمروا بطلبون من السلطان بتمكينهم من إعادة كنيستهم . وكان اكبر المساعدين لهم الأمير شيبك الدوادار الكبير بسبب ما بذلوه له من اموال طائلة (145) . واخيراً تمكن الأمير شيبك من افتتاح السلطان باعادة كنيستهم . فأصدر مرسوماً بذلك ، فشرعوا باعادة بنائه في 11 ربيع الآخر سنة 880 هـ . ان إعادة بناء الكنيس اليهودي يدل على النفوذ الكبير الذي تمتع به اليهود في بيت المندس . ولدى السلطنة المملوكية بسبب امتلاكهم الاموال الطائلة وبذلهم الاموال للامراء ورجال الدولة ، وقد سمو اليوم الذي اعادوا فيه كنيستهم ( عيد النصر ) (146) . ومن هنا نرى ان اليهود في بيت المندس رغم عددهم النليل الا انهم كانوا في العصر المملوكي يتمتعون بنفوذ قوي لدى الحكام ، ونفوذ مادي بسبب استغلالهم بالتجارة والصناعة . مما تدمر نستطيع الدول بأن اهل الذمة من اليهود والنصارى تمتعوا في العصر المملوكي بتسامح ديني ، ومارسوا حقوقهم كاملة دون تعصب ، وزاولوا مهنتهم بحرية تامة . وعاشوا مع المسلمين في المدن والقرى . وان كنا نجد بعض النصارى يعيشون ويشكلون نسبة كبيرة في بعض المدن والمناطق . مثل نصارى وادي موسى والكرك في شرقي الاردن ، والمندس والناصرة وبيت لحم وبيت جالا في فلسطين (147) .

(140) المصدر نفسه ، ص 307 .

(141) الانس الجليل ، ج 2 ص 308 .

(142) المصدر نفسه ص 309 .

(143) المصدر نفسه ص 309 .

(144) المصدر نفسه ص 310 .

(145) المصدر نفسه ص 312 .

(146) المصدر نفسه ص 313 .

(147) أبو الفداء : تواريخ البلدان ، ص 247 .

ولم يكن النصارى بمنأى عن الاحداث السياسية في المنطقة ، فنجد ان نصارى الكرك والشوبك وقفوا الى جانب السلاطين المماليك ، فأيدوا الناصر محمد بن قلاوون في ثورته بالكرك ، وقدم احد التجار النصارى الشوابكة الى الظاهر برفوق مائة ألف دينار لينفخها في اعداد الدوات والعساكر . لذا منحهم السلاطين امتيازات خاصة ، فنجد ان محمد بن قلاوون اصدر مرسوما في سنة 700 هـ ( 1300 م ) حدد بموجبه زي النصارى واليهود ، فألزم النصارى بلبس العمام الزرقاء ، واليهود الصفراء . والسامرة العمام الحمراء ، ولكنه استثنى من ذلك نصارى الكرك والشوبك لما لهم من مكانة خاصة في نفسه . فبنوا يلبسون العمام البيضاء اسوة بالمسلمين (148) . وفي عهد برفوق نال نصارى الكرك والشوبك حظوة لديهم ، فاعفاهم من الضرائب والمصادرات اكراما لموقفهم ، ومساعدتهم اياه (149) .

وكان للنصارى في بلاد الشام بطرك اليه مرجعهم في التحليل والتحريم والحكم بينهم ، واليه امر الكنائس والديارات والرهبان ومركزه دمشق (150) اما اليهود فكان لهم رئيس يتكفل بشؤونهم واقامة حدود التوراة بينهم مركزه دمشق ايضا ، اما السامرة فرئيسهم في نابلس (151) .

ويجدر بنا ان ننسب مع نهاية هذه الدراسة ان الازدهار الاقتصادي الذي حظيت به المدينة المندسة في العصر المملوكي ، واكبه نهضة علمية رائدة ، تمتل في العديد من المدارس والزوايا والاربطة والخانقاهات ، فبلغت مدارس الهندس تسعا واربعين مدرسة . فند اصبح بيت المندس منذ القرن السابع الهجري ( الثالث عشر الميلادي ) قبلة العلماء ، فبعد سقوط بغداد وخروج العرب من الاندلس ، هاجر العديد من العلماء والفضهاء الى بيت المندس واستروا فيه ، فابن الصيرفي يقول : ( لأن بيت المندس محط رحالهم وغاية منصودهم وأمالهم ) (152) . وقد ترتب على ذلك ان صار المندس محط انظار طلاب العلم من جميع انحاء العالم العربي والاسلامي ، ونبغ العديد من علمائه في شتى صنوف العلم والمعرفة .

- 
- (148) المدريزي : لسلوك ، ج 1 ص 912 . ماير : الملابس المملوكية ، ص 121 .  
يوسف غوانمة : تاريخ شرقي الاردن ، النسم الحضاري ، ص 116 .  
(149) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج 9 ص 260 .  
(150) البلسندي : صبح الاعشى ، ج 4 ص 194 . ج 12 ص 425 ، 426 .  
(151) المصدر السابق ، ج 4 ص 194 . ج 12 ص 428 .  
(152) ابن الصيرفي : نزعة النفوس والابدان ، ج 3 ص 61 .

## خاتمة :

كان الاهتمام بالمدينة المندسة قائما طيلة العصور الاسلامية ، وزاد هذا الاهتمام في العصر المملوكي بسبب الاخطار الخارجية التي كانت تهدد بيت المقدس ، الصليبية والتتارية . فجعلوها نيابة تابعة لدمشق ، وبعد غزوة بطرس لوزجنان على الاسكندرية رفع الأشرف شعبان رتبة نائبها الى طبلخاناه ، كي يتمكن من صد الاخطار التي تهددها . ولكن الظاهر برفوق استحدث في بيت المقدس نيابة مستقلة سنة 796 هـ ( 1393 م ) ، وجعل فيها اميرا كبيرا وزوده بالرجال والعتاد . كي ينفذ في وجه التتار والفرنج معا . فلما كما فعل الاشرف شعبان الذي استحدث نيابة الاسكندرية سنة 767 هـ ( 1365 م ) ورصد فيها الدوات للوقوف في وجه الاطماع الفرنجية التي ما فتئت تهدد السواحل المصرية والشامية معا ، مستهدفة اعادة سيطرتها على ما فقدته في بلاد الشام وفي مدمته بيت المقدس .

وجدت في نيابة بيت المقدس معظم الوظائف التي كانت في النيابات الاخرى فوظائف ارباب السيوف كان على راسهم النائب ثم نائب الدفعة والوالي . وكان يضاف الى نائب المقدس نظر الحرمين الشريفين في المقدس والتحليل . وهذا تشريف وامتياز اختص به نائب المقدس دون نواب بلاد الشام . ثم هناك الوظائف الدينية والدنيوية في قمتها شيخ الصلاحية وقاضي النضاة الشافعية .

ومثلت قوة نيابة بيت المقدس بجيشها وقواتها الخاصة ، وجد هذا الجيش ، لحماية المدينة المندسة ، والمحافظة على الامن والاستقرار في النياحة وخارجها . فاشترك جيش المقدس في النضاة على العديد من النائرين والمبشرين في بلاد الشام ، ولم ينفذ الأمر عند هذا الحد ، بل وجهه المالك للنضاة على اعدائهم خارج الحدود ، فاشترك في حرب شاه سوار وفي حرب العثمانيين . وكان جيش المقدس كبير ويصغر حسب الظروف ، بل انه بلغ في مرات عديدة الآلاف واشترك في معظم التجاريد المتوجهة لحرب ابن عمان . وتنتعت نيابة بيت المقدس بازدهار اقتصادي ، فكانت اسواق المقدس زاخرة بصنوف السلع المختلفة ، وصدرت سلعها وبلغت المناطق المجاورة الى الاسواق الشامية والمصرية والاوربية برا وبحرا . كما حظيت المدينة المندسة بدخل هام من وفود الزائرين والحجاج ( السياحة الداخلية ) في المواسم ، حتى انهم بلغوا في بعض السنوات عشرين الف زائر . وكان للمقدس علاقاته الاقتصادية الخارجية فوجد فيه وكالة للتجار الاجانب كما وجد فيه فرع لاحدى لشركات الايطالية التجارية الكبيرة .

وكان سكان بيت المقدس اخلاطا من مسلمين ونصارى ويهود ، وكان النصارى في بعض الاحيان يشكلون نسبة اكبر في المدينة ، الا ان المسلمين في العصر المملوكي اصبحوا يمثلون نسبة 70 - 80% من السكان . وازداد سكان المقدس في العصر المملوكي فبلغ مجموع سكانه 40,000 نسمة ، وهذا اعلى رقم بلغه في لعصر الاسلامي . ولكن التخلخل السكاني حدث في المقدس بعد منتصف القرن الثامن الهجري ( الرابع عشر الميلادي ) بسبب الطوائع والابوثة التي فتكت بسكانه .

لما ليهود فكانوا قلة في العصر الاسلامي ، وانعدما في فترة الاحتلال الصليبي ، ولكنهم تسلبوا للمقدس بعد ان حرره صلاح الدين . وقد لاحظنا ان عددهم لم يكن كبيرا في العصر المملوكي ، الا انهم تمتعوا بتأثير اقتصادي ونفوذ سياسي بسبب ما امتلكوه من ثروات طائلة ، وما بذلوه لاصحاب الدولة

حتى أنهم تمكنوا بسبب ما بذلوه من أموال من إعادة بناء كنيسهم في القدس . وسمو اليوم الذي أعادوا فيه بناء الكنيس ( يوم الناصر ) .

ان المدينة المقدسة . بنيت طيلة العصر الاسلامي منار اهتمام الخلفاء والسلاطين والملوك . وبلغ هذا الاهتمام اوجه في العصر المملوكي . فجعلوا فيها نيابة مستقلة كغيرها من المدن الهامة في بلاد الشام . وبذا أصبح في فلسطين ثلاث نيابات هي : نيابة صفد ، ونيابة القدس ونيابة غزة . وفي هذا برهان ندحض به آراء بعض المستشرقين والباحثين الغربيين الذين يدعون ان القدس لم يلق الاهتمام والعناية في العصر الاسلامي . وانه كان كأحد مدن بلاد الشام العادية .